
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

أثر التضعيف في تطور العربية

والإبدال الذي غفل عنه علماء اللغة

للدكتور مصطفى جواد

عضو المجمع المراسل

اللغة العربية لغة اشتقاقية وليست ذات تركيب مزجي ولا ذات تركيب نحتي فهي تعتمد في نمائها وزيادة معانيها التي تقتضيها سيرة أهلها الاجتماعية وثقافتهم العقلية ووجودهم الروحاني على توليد الكلمات من أصول عامة وذلك بإضافة أحرف معينة إلى تلك الأصول أو تكرار أحرف بأعيانها في تلك الأصول أو تقديم أو تأخير فيها أحياناً مع الاستعانة بتغيير الحركات التي مع وظيفتها الموسيقية ، التي تفردت بها العربية ، تساعد على أداء تلكم المعاني ، وهذا هو : « الاشتقاق العام » .

وتكرار حرف بعينه في الكلمة أو حرفين بأعيانهما هو « التضعيف » كما هو معروف متعالم ، وقد وجدت طبيعة اللغة العربية أن تكرير الحرف أو الحرفين في الكلمة أحق بزيادة المعنى من اجتلاب حرف أجنبي أو أكثر منه إليها ، ولما كثرت المعاني استوجبت كثرة المباني فلم يصبح التضعيف وحده كافياً في أداء المعاني الكثيرة ، وعمدت طبيعة اللغة إلى اجتلاب أحرف الزيادة التي جمعها بعض العلماء بقوله «سألتمونيها » وبعضهم بقوله « اليوم تنساه» .

وبما قدمت من التمهيد يعلم أن التضعيف في العربية كان من الأمور الضرورية لتطورها فلم يكن للغة منه مندوحة ولا بد ، إلا أنها بعد أن قررت قاعدته وضمنت فائدته ، ارتأت أن تخفف من شدته وتلطف من حدته ، فعاجلته وعالجته بالإبدال المحقق[1] .

من البديهيات الصرفية أن الإبدال المطرد يؤول إلى تسعة أحرف جمعها بعض الفضلاء في قوله « هدأت موطيا » كالهاء في « الرحمه » عند الوقف . والدال الثانية في « إدّان »

---

(١) الإبدال المحقق هو الذي له صورة حرفية خطية وهو الكثير ، وغير المحقق ماله صورة لفظية فقط وهو القليل كإبدال الميم من النون في « من باح ؟ » . والعجب كيف اعتدوه إبدالا مع أنه عارض لايخط .

والهمزة فى « قلائد » و « سماء » والتاء الأولى فى « اتحد » والميم فى « من باح ؟ » والواو فى « قوتل » والطاء فى « اصطبر » والياء الأولى فى « مرمىّ » والألف فى « مال وجرى وعاد وعدا » :

أما الإبدال غير المطرد فكثير الأمثلة [١] بل المثل فى اللغة العربية ، وحسبك فى ذلك كتاب الإبدال [٢] تأليف حجة العرب أبى الطيب عبد الواحد بن على الحلبى اللغوى المتوفى سنة ٣٥١ هـ . وفى هذا الكتاب الضخم ضروب كثيرة جداً من الإبدال ، منها إبدال أحرف العلة ، ومنها إبدال الاختلاف ، أى اختلاف لغات القبائل ، ومنها إبدال خطأ السمع ، ومنها الإبدال المتوهم الذى ليس بإبدال فى الحقيقة ، وإنما فيه تطويع للمعنى فى كلمة من الكلمات حتى يقارب معنى كلمة أخرى مشبهة للكلمة الأولى على التقريب ، ومنها إبدال التصحيف أو التصحف ، ومنها إبدال التفخيم وإبدال الترقيق ، ومنها إبدال التعاقب أى تعاقب الحروف المتقاربة المخارج ، وإبدال الإتباع وإبدال الاتفاق المسمى فى أيامنا بالصّدفة : اسم المصادفة كالهجرة من المهاجرة والعشرة من المعاشرة ، وإبدال التعريب وإبدال التضعيف وإن لم يسم باسمه . فإبدال أحرف العلة كالغزوة والغزاة والقول والقال ، وإبدال الاختلاف ، نحو سنة قحوط وسنة تحوط للسنة المجدبة ، والصاعقة والصاقعة ، وإبدال خطأ السمع نحو « عبهله وعذهله » والإبدال المتوهم مثل « اقتسره واعتسره » فلكل منهما مادة مستقلة المعنى عن الأخرى ، وإبدال التصحيف أو التصحف مثاله « العابر » للهالك الماضى و « الغابر » فإن معناه الصحيح « الباقى » وإبدال التفخيم نحو « متّ ومطّ » وإبدال الترقيق نحو « غَلِطَ وغَلِتَ » وإبدال التعاقب نحو « المشجب والمشجر وألَبّ وأرب » وإبدال الإتباع مثل « السُلاطِح والبُلاطِح » وإبدال الاتفاق نحو « أرّش عليهم وأرّب عليهم » إذا وشى بهم وإبدال التعريب « كالفسطاط والفستاط والفسّاط » [٣] وإصبهان وإصفهان وإبدال التضعيف كالخُرنوب والخُرّوب .

---

(١) جمع التكسير إذا اتصلت به « أل » الجنسية وكان لأدنى العدد جازت دلالته على الكثرة كالأنفس .

(٢) نشره بالطبع المجمع العلمى العربى بدمشق فى جزءين كبيرين سنة ١٩٦٠ وسنة ١٩٦١ بتحقيق الأستاذ البارع المحقق عز الدين علم الدين التنوخى .

(٣) هذا على اعتبار أن الأصل هو الأول ثم قلب الحرف الثانى سيناً فأدغمت فيها الأولى وهذا مألوف فى اللغة بدلا له وجود الإدغام نفسه فيها مثل « ادارأتم » و « ادخر » ونحو الا نمحاء « الا محاء » .

والإبدال الحرفى الأول الناتج لحروف « هدأت موطياً » ماهو إلا إبدال مختفى بموسيقية الكلمة وتسهيل تلفظها على اللسان العربى . فهو تطور صوتى ليس فيه نماء للغة ولا تكثير لمفرداتها . والإبدال الثانى على اختلاف أنواعه لا يخرج عن أن تولد الكلمة الواحدة كلمة واحدة أخرى فيها نظر من حيث الصحة والرواية والفصاحة وضدها ، وأكثر كلماته أشبه بالمترادفات منها بالإبداليات أعنى المبدلات وبقى « إبدال التضعيف » فهو ذو الأثر الواضح فى تطور اللغة العربية ونمائها شبه المطرد وهو الإبدال الذى غفل عنه العلماء : علماء اللغة ، ففاتهم أمور مهمة ومطالب دقيقة فى مباحث التصريف والتأليف وأطوار من تطور الكلم ضرورى عرفانها للوقوف على بعض أساليب النماء والتكامل فى اللغة ومعرفة الأصول.

ذكرت آنفاً أن التضعيف فى العربية كان من الأمور الضرورية لتطورها إلا أنها بعد أن قررت قاعدته وضمنت فائدته استثقلته فرأت أن تخفف من شدته فعالجته بالإبدال المحقق حين الاستثقال . وكان من الطبيعى أن تستعيض اللغة من أحد الضعفين بأحد أحرف العلة الثلاثة أول وهلة للينها وطراءتها ورخاوتها ، وكان فيها مثل نث الخبر ينُثُّه نثاً » فأبدلت من الثاء الثانية ألفاً وقالت « نثى الخبر ينْثيه نَثياً » وكلاهما بمعنى أشاعه ، ومستعمل فى الخطاب والكتاب وله تصريفه ومصدره ، وتوابعه ، وكان فيها مثل « ضرَّه يَضُرُّه ضَرًّا » فاستثقل قوم التضعيف فى زمان اللغة الأقدم فقالوا «ضاره يضيره ضَيراً» بابدال الياء أيضا من الراء الأولى، وكان فيها « أدَّه الأمر يؤُدُّه أَدّاً » فاستثقل التضعيف فقيل « آدَه الأمر يؤوده أَوْداً » أى ثقل عليه فى كلا الفعلين ،ومن ذلك الضرب «طَمّ الماء يطُمُّ طُموماً وطَماً » و« وطما يطموطموّاً وطمى تطمى طمياً » أى زاد وارتفع فى كلا الفعلين وحذ وحذاكذلك ومنه «غبّ وغاب» ، ولا شك فى أن أغلب ما يحدث من هذا الإبدال إنما يقع على عين الكلمة كأده وآداه وضره وضاره ، حتى ليجوز أن يكون كثير من الأفعال الجُوف ناشئاً عن الثلاثى المضعف فى قديم الزمان ، كما هو ملحوظ من القرابة فى المعنى بين « مدّ وماد » و« حفّ وحافَ » و« ضفّ وضافَ » وأمثالهن ، وقد أومأ إلى ذلك الشيخ اللغوى الراحل أحمد فارس الشدياق ،قال فى بعض مباحثه الأصيلة : «... إن اللغة كغيرها من الصنائع والموضوعات البشرية لا يحدث شئ منها تاما كاملا من أول وهلة ، ولكن على التدريج ، فالأحرى إذاً أن نقول : إن الفعل السالم جاء آخر الأفعال ، أما الأجوف فإنه غالباً يأتى على عقب المضاعف كطَبَّ وطابَ وضَرَّ وضار وصَرَّ وصار أى صَوَّتَ وجبَّ وجاب

وصبّ وصاب ومرّ ومار ، وأما الناقص فانه صدى غيره من الأفعال وكأنه نوع من القطعة لغة لبعض العرب نحو همر وهمى ورجب ورجا ، أى خاف ونحق ومحا وشجب وشجا أى أحزن ، وتجمع وتجمى والأسى والأسف كما سيمر بك[١] » .

وقد كان قال : « وهنا أستسمح السادة العلماء والأئمة الفضلاء عما تجاسرت به من اتخاذ الفعل المضاعف أصلا من دون خرم لقواعد الصرف وإنما القصد فى ذلك التوصل إلى معرفة معانى الألفاظ وهو أمر اعتبارى لا يؤدى إلى إفساد اللغة فاذا راعوا هذا النفع العظيم فى جانب ذلك الخلاف العقيم هان عليهم أن يستحسنوا عملى أو فى الأقل أن يغضوا النظر عن تقبيحه والقدح فيه وذلك أملى[٢] » .

قلت : ومما يؤيد كون الفعل الأجوف عاقباً للمضعف فى الوجود اللغوى احتواء عدة من مصادر الأجوف على حرف مكرر مع خلو الفعل منه ، وذلك مثل « بان بينونة وبات بيتوتة ودام ديمومة وحان حينونة ودان دينونة وقال قيلولة وصار صيرورة وكان كينونة وذاع ذيعوعة وغاب غيبوبة » إلا أن اعتداده المضاعف أصلا يشعر بذهابه إلى « ثنائية » اللغة العربية قياساً لها على كثير من اللغات الأعجمية ، وهو مذهب من مذاهب علم اللغات الحديث ، إلا أن العربية لغة سامية فينبغى البحث فى اللغات الساميات على حدة ، كما هو معلوم . وأنا أحسب الشدياق — رح — اقتبس هذا الرأى من الخليل بن أحمد أول لغوى عربى مؤلف ، فى كتابه « العين » الذى رواه وحققه تليمذه الليث بن المظفر فقد جاء فى أوله « قال الليث قال الخليل : العرب تقول : عق الرجل عن ابنه يعق عقاً إذا حلق عقيقته وذبح عنه شاة ، وتسمى الشاة التى تذبح لذلك عقيقة[٣] . . . » وكأنه قرأ قول الخليل : « والعرب تشتق فى كثير من كلامها أبنية المضاعف[٤] من بناء الثلاثى المثقّل بحر فى التضعيف . ومن الثلاثى المعتل ، ألا ترى أنهم يقولون : صَلَّ اللجامُ يَصِلُّ صليلا ، فان حكيتَ ذلك

---

(١) سر الليال فى القلب والابدال « ص ٢٥ بالمطبعة السلطانية بالأستانة سنة ١٢٨٤ » .

(٢) المرجع المذكور « ص ٢١ ، ٢٢ » .

(٣) القسم الأول من العين « ص ١١ طبعة الأب أنستاس مارى الكرملى ببغداد سنة ١٩١٤ » .

(٤) يعنى المضاعف الرباعي .

قلتُ : صَلْلَ (١) ؛ تمد اللام وتثقلها ، وقد خففتها فى الصلصلة لصوت اللجام ، فالثقل مد والتضاعف ترجيع وتخفيف فى إعادة (٢) » .

وعلى اعتداد اللغة العربية ثنائية الأصول يكون المضعف الثلاثى للمبالغة القديمة أو للتكثير القديم ، وفى ذلك نظر كما ألمعت إليه بالقول آنفاً ، ثم إنه لو كان الناقص صدى غيره من الأفعال(٣) ، لوجدنا كثيراً من الأفعال الثلاثية الناقصة أصداء للمضعف ، مع أن الذى ذكرته للتمثيل قليل ، حتى ليجوز الشك فى كون المضعف الثلاثى أقدم من الناقص الثلاثى وإن مهدت به لبحثى فى إبدال أحد الضعفين حرف علة للتوصل إلى الإبدال فى الكلمة الرباعية وما فوقها ، ذلك لأن الناقص أسهل تلفظا من المضعف ، وطبيعة اللغة موكلة بابتغاء السهولة ، ويؤيد هذا الرأى الأخير اختلاف المعنى بين أمثال « أدَّ وأدى وبدَّ وبدا وثرَّ وثرى وبلَّ وبلا وبنَّ وبنى ومطَّ ومطا وعدَّ وعدا وشدَّ وشدا » وما يطول ذكره ويمل .

والتضعيف الذى بنينا عليه هذا المبحث إنما هو التضعيف فيما زاد على الثلاثى فى حرف واحد ، وأصله للمبالغة أو للتكثير أو لتحقيق الصلة بالأصل ، فالمبالغة فى مثل « حطَّم الباب » تحطيما ، والتكثير فى مثل « فتَّح الأبواب » تفتيحاً ، وتحقيق الصلة فى مثل « جدَّله » تجديلا أى ألقاه على الجدالة وهى الأرض . ويلحق به مثل « زوَّده وعسَّله وزيَّته » .

والمبالغة والتكثير وتحقيق الصلة من مطالب اللغة الضرورية التى لا تستغنى عنها البتة ، ولما كان التضعيف ثقيلا كما بينت آنفاً لم يكن بد من إبدال أحد الضعفين حرفاً خفيفاً كالألف فى « كاتب » والياء فى « صيرف » والواو فى « كوثر » و « أحدودب » فهذه القاعدة تستوجب أن تكون أصول هذه الكلمات على صورة « كَتَّبٍ وصَرَّفٍ وكثَّرٍ واحدَدَّبَ » ثم ماتت الأصول قديماً لصعوبتها ، والبقاء للأصلح ، كما ذهبت الياء من « فِيعال » مصدر « فاعل يفاعل » فبقى على « فِعال » و « مُفاعلة » وكما ماتت الهمزة من « يؤكرم » مضارع « أكرم إكراماً » لثقلها ، وكما ذهبت الواو من أمثال « يعد ويصل ويجد » .

---

(١) كتبتها هكذا لبيان مراد الخليل .

(٢) العين فى القسم المذكور « ص ٧ » .

(٣) هى دعوى الشيخ اللغوى الراحل الشدياق وقد ذكرتها قبلا .

وبمعرفتنا هذا الإبدال نعلم أصل الواو فى « حوصلة » الطائر وأشباهها ، وفى « الفوضى » فأصلها « الفَضَّى » كالشتّى ، ومفردها « فضيض » كشتيت ، فلماجمعت على « فَعلَى[١] » استثقل التضعيف مع ثقل الضاد الأصلى فأبدلت الواو من الضاد الأولى .

ولم تقتصر اللغة فى الإبدال من أحد الضعفين على أحرف العلة ، ففى العربية أحرف خفيفة موسيقية أخرى وفى مقدمتها « النون » الحبيبة إلى لغة العرب ، فإنها تأتى تنويناً للاسم ، وتأكيداً للفعل ، وتذييلا له فى مثل « يكتبان ويكتبون » وتحقيقاً للنطق فى مثل « بخ بخ وإذن » وكسعاً للاسم نحو « ضيفٍ وضيفنٍ » و « لدَى ولَدُنْ » ويجوز على رأى آخر إلحاق « إذا وإذن » بذلك ، فضلا عن ورودها ضميراً للمؤنث نحو « يكتبن » ، ومن أجل ألفة النون وخفتها ورقتها أبدل أحد الضعفين نوناً فى كثير من الكلم المضعفة ، فقد قالت العرب خروب لثمر الشوك المعروف ، ثم قالوا « خرنوب »[٢]— وقالوا فى فطيسة الخنزير « فنطيسة » وفى القُبَّرة « قُنبَرة » وكَثَّأت اللحية تكثيئاً وتكنئة وكنثأت كنثأة أى طالت وكثفت ، فالذين لم يعرفوا القاعدة عدوهما فعلين مستقلين وقالوا إن النون زائدة ، والصحيح هو ما ذكرته من الإبدال ، وكثير من الأسماء غير الثلاثية ثانيها النون هذا شأنها وقد حار العلماء واختلفوا فى تعليل نونها وذلك كالقندأو والجُنْدب والحِنْزابة مع أن نونها مبدلة من أحد الضعفين . وهذه القاعدة تقتضى أن يكون وزن « انفعل » قديماً على وزن « إفَّعَلَ » ثم جرى فيه الإبدال وهو كذلك فى اللغة الأكدية أخت اللغة العربية ، قبل أكثر من أربعة آلاف سنة نحو Ipparas[٣] .

وبما قدمت يعلم أن أصل « احرَنْجَم » هو أحرَجَّم وأصل افرنقع هو « افرَقَّع » وأصل « اسلنطح » هو « اسلَطَّح » وأصل«قرنص»[٤] هو « قرَّص » وأصل الحبنطى هو الحبطى ،

---

(١) من هذا يظهر لك الخطأ المبين فى استعمال الكتاب « الفوضى » اسما مفرداً مع أنه جمع صفة كالقتلى والشتى .

(٢) إذا نقل الاسم من « فعّول » إلى « فنعول » أو «فعنول» فان أولهما يضم وشذ من ذلك صعفوق على اعتبار أن أصله « صفوق » لأنه السمسار ومن عمله الصفق باليد عند البيع والشراء .

(٣) معجميات عربية سامية للأب أوغسطين مرمرجى الدومنيكى ص ٧٣ .

(٤) جاء فى رحلة ابن جبير « من قرنصة الخشب عجيبة » و « مجردان أبيضان و مقرنصان » (ص ٧٢ ، ١٧٢ طبعة مطبعة السعادة سنة ١٩٠٨) .

وهلم جراً فى جميع ما يشبه ذلك ، فمن الأصول ما قد أميت استعماله ومنها ما لايزال مستعملا وإن أثر التطور فى معناه مثل « قرّص وقرنَص » البناء أو السقف ، وإذا علمت ذلك فلا تعجب مما ورد فى حاشية من حواشى كتاب « التصوير عند العرب » ص١١٣ تعليقاً على قول القائل «ظن أن المدرّج المزوّق كأنه خشب مقرنص » ونصه « المقرنص نوع من الصناعة فى الحجر والخشب يتخذ فى زوايا السقوف وعقود الأبواب فيه دخول وبروز وقد ورد (المقرنص) بالنون فيما اطلعنا عليه ، وهو المشهور أيضاً على الألسنة إلى الآن ولعله مأخوذ من قولهم : قرنص[١] البازى ، إذا ربطه ليسقط ريشه ، لأنه يكون فى هذه الحالة متجمعاً منكمشاً منفش الريش لذلته وتبرمه من ربطه ، وقد رأيناه بالفاء بدل النون فى عبارة واحدة وهى للذهبى نقلها عنه ابن مفلح فى كناش له عندنا بخطه ، ويكون له على هذا من قرفصته (كذا) ، إذا جمعه وشده وجعله على هيئة المتجمع القاعد القرفصاء ثم حرف إلى المقرنص بالنون ، والأظهر الأول ، ولا نظن هذه الفاء إلا سبق قلم من ابن المفلح .

فلو عرف القائل قاعدة الإبدال النونى التى ذكرتها لاستغنى عن هذا الكلام المتكلف المستبعد ، فان « قرنص » للبازى لا يقتصر معناه على تكريزه أى سقوط ريشه بل يعنى أيضاً اقتناءه للاصطياد فهو أولى إذن بأن يكون وليد « قنصه يقنّصه تقنيصاً » على ما يأتى بيانه أى أعده للقنص وهيأه لذلك .

ولم تغفل طبيعة العربية السمحة فى إبدال التخفيف حرف الراء بل الراء على التعبير الفصيح ، فالراء أحد أحرف الذلاقة وهى قافية الشعر العربى المرنان ، ولذلك أبدلت من أحد الضعفين فى كل موضع وافقها ووافقته ، للتخفيف ، فقد قالوا « فطّح الشىء وفرطحه » « وعقّبه وعرقبه » وفطيسة الخنزير وفرطيسته بالراء ، وخبّط الشىء وخربطه عند العراقيين و « لخبطه » عند المصريين ، بعد القلب المكانى ، فإن أصله « رخبطه » مقلوب خربطه العراقى ، واللام والراء تعتقبان فى الكلم كثيراً نحو « فرطح » الذى ذكرت آنفاً و « فلطح » . وبهذه القاعدة نعلم أن « الجرثومة » أصلها « الجثّومة » لأنها تجثم على الأرض ، والعرقوب أصله « العقّوب » والبرطيل بمعنى الرشوة أصله « البطّيل » من البطلان والباطل ولا صلة له بالبرطيل الذى هو حجر مستطيل ، ويكون الضرغام من « الضغّام » وهو العاض

---

(١) انظر ابدال الراء من أحد الضعفين فيما يأتى .

بملء فيه كالأسد . والقِرضاب من « القضّاب » وقرضب الشيء من « قضبه » وهلم جرا إلى كثير جداً من أشباه هذه الأمثلة أفعالا وأسماء .

ولا أغالى إذا قلت إن اللغة تعمد أحياناً فى إبدال التخفيف إلى الحاء نحو « درّج الشيء ودحرجه » و « زلقّ الشيء وزحلقه » و « زلفّه وزحلفه » ، والسبب فى ذلك أن الحاء من أحرف الحلق . وتشارك الحاءأختها الهاء فإبدالها من أحد حرف المضعف فى نحو « برّج وبهرج وبذل وبهذل ، غير نادر ولا مستغرب . وهذه الإبدالات التى ذكرتها وخصوصاً ذوات الأثر البالغ فى تطوير اللغة العربية ومما غفل عنه علماء اللغة تحل لنا مشكلات لغوية ما كان حلها يخطر ببال ، ولا كانت فى متناول البحث فى حال من الأحوال ، وأثرها لا يزال ظاهراً فى العربية الفصيحة واللهجات العامية فالأديب يميل إلى أن يقول اليوم « جَنْدله» مكان « جَدَّله » والعامى العراقى يقول « العَنْجور » لنوع من البطيخ بدلا من « العَجّور » ويقول « خَنْطل فلان » بدلا من خطّل أى أدركه الخطل ، ويسمى الدّبوس « الّدنبوس » ويقول « قَرطَفَ شعر رأسه » مكان « قطّفه » و « خربَطَ شؤونه » بدلا من « خبّطها » و « بَهْذَل فلاناً » مكان « بذّله » و « ضاجَ » بمعنى « ضجَّ » ، ويدفع الإبدالَ إلى العين أحياناً فيقول « شعْوَطَ القدرْ » ويريد « شوَّطَها » وتَنعوَس فلان أى تَنوّس كالغصن المتمايل ، وقَعْوَرالشيء أى قَوَّرَه .